

خطبة بعنوان: التنمية الشاملة وسبل تحقيقها بين الواقع والمأمول.

عناصر الخطبة:

العصر الأول: التنمية الروحية الإيمانية والعلمية وسبل تحقيقهما.

العصر الثاني: التنمية الاقتصادية والاجتماعية وسبل تحقيقهما.

العصر الثالث: التنمية الشاملة في حياتنا المعصرة بين الواقع والمأمول.

المقدمة:

أما بعد:

العصر الأول: التنمية الروحية الإيمانية والعلمية وسبل تحقيقهما.

التنمية الشاملة من أهم مقومات الحياة البشرية في المجتمع؛ ولقد اهتم الإسلام بعملية التنمية بجميع مجالاتها المعنوية والمادية والحسية والعقلية والعلمية والعملية؛ لأن الإسلام يريد أن يكون أفرادها أصحاب قوة ونماء وازدهار في كل شأنٍ من شئون الحياة؛ فعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ حَرِصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَعَجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ " (مسلم)

والتنمية تعني: « عملية تطوير وتغيير قدر الإمكان نحو الأحسن فالأحسن، وتكون مستمرة وشاملة لقدرات الإنسان ومهاراته المادية والمعنوية، تحقيقاً لمقصود الشارع من الاستخلاف في الأرض، برعاية أولي الأمر، ضمن تعاون إقليمي وتكامل أممي، بعيداً عن أي نوع من أنواع التبعية». (مفهوم التنمية - عمر عبيد حسنه)

وهذا التعريف جامع وشامل لجميع مجالات التنمية العلمية والعملية والروحية والجسدية... إلخ

عباد الله: تعالوا بنا في هذه الدقائق المعدودة نقف وقفة سريعة مع كل مجال من مجالات التنمية وكيف نرتقي به ونحققه عملياً على أرض الواقع؟! وأهم هذه المجالات بلا شك مجال: (التنمية الإيمانية)

فينبغي على العبد أن يسعى إلى تنمية وزيادة إيمانه دائماً؛ لأن الإيمان يزيد وينمو بالطاعة؛ وينقص بالمعصية.

وبالمثال يتضح المقال: إننا لو صلينا الجمعة - مثلاً - جماعة في هذا المسجد؛ فإن النسبة التي حصل عليها كل واحد منا تختلف عن الآخر تبعاً لحشوعه وتقواه وإيمانه بالله؛ فعن عمارة بن ياسر قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ الْعَبْدَ لِيُصَلِّي الصَّلَاةَ مَا يُكْتَبُ لَهُ مِنْهَا؛ إِلَّا عُشْرُهَا؛ تُسْعُهَا؛ ثُمْنُهَا؛ سُبْعُهَا؛ سُدْسُهَا؛ خُمُسُهَا؛ رُبْعُهَا؛ ثُلُثُهَا؛ نِصْفُهَا " (رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في شعب الإيمان)؛ لذلك كان الإيمان شعباً (أي درجات)؛ وكذلك الكفر شعب كما ذهب إلى ذلك كثير من العلماء.

وإذا أردنا التنمية الإيمانية فعلياً أن نسلك سبل عوامل زيادة الإيمان ونمائه وهي كثيرة منها:

حضور مجالس العلم؛ فعن حنظلة الأسدي، قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافِقٌ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ ؟ ، قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُدَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ

حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ ، فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَمَا ذَاكَ ؟ " ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ نُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي ، وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرْشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ " (مسلم)

ومنها: قراءة القرآن وتدبره ؛ ففي قراءته وتلاوته يزداد الإيمان ويدل على ذلك قول الله عز وجل في وصف المؤمنين الصادقين: { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا } (الأنفال: ٢)

ومنها: التأمل في آيات الله الكونية ومخلوقاته جل وعلا ؛ ويدل على ذلك قول الله تعالى: { قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } (يونس: ١٠١)؛ فإن العبد إذا تفكر في آيات الله تعالى في هذا الكون عرف عظمة الله تعالى فازداد إيمانه.

ومنها: البعد عن المعاصي؛ لأن اقرار المعاصي سبب في نقصان الإيمان، والبعد عنها ومدافعتها سبب زيادته؛ والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وإن من طاعة الله تعالى أن يبتعد الإنسان عن المعاصي والفتن، فأبي عبد أراد أن يعيش قلبه سليماً من الأمراض لا تضره الفتن ما دامت السماوات والأرض فليبتعد عنها ولينكرها .

ويدل عليه حديث حذيفة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا ، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا ، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا ، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ " (مسلم) ، ومرباداً: أي مخلوطاً حمرة بسواد، كالكوز مجحياً: أي كالكأس المنكوس المقلوب الذي إذا انصب فيه شيء لا يدخل فيه. قال القاضي عياض: " ليس تشبيهه بالصفاء بياناً لبياضه، لكن صفة أخرى لشدة على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلتصق به ولم تؤثر فيه كالصفاء وهو الحجر الأملس " [انظر شرح مسلم للنووي]

ومنها خلق الذكر: قال ابن حجر في الفتح: " كان معاذ بن جبل يقول للرجل من إخوانه: " اجلس بنا نؤمن ساعة فيجلسان فيذكران الله تعالى ويحمدانه " ؛ وفي شعب الإيمان للبيهقي: " عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن رواحه قال لصاحب له: " تعال حتى نؤمن ساعة " قال أو لسنا مؤمنين؟ قال: " بلى ولكننا نذكر الله فنزداد إيماناً "

ومنها: سؤال الله تعالى زيادة الإيمان وتجديده ؛ ويدل عليه: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه وعبد الله بن عمر رضي الله عنه قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب ، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم " (رواه الطبراني والحاكم وحسنه الألباني في الصحيحة)

وهناك أسباب أخرى : كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وزيارة القبور ، وتأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والقراءة في سير السلف ، والاهتمام بأعمال القلوب كالخوف والرجاء والمحبة والتوكل وغيرها ، والدعوة إلى الله تعالى ، والتقلل من الدنيا ومن المباحات والفضول في الطعام والكلام والنظر ، وتنويع العبادة ، وتذكر منازل الآخرة ، ومناجاة الله تعالى والانكسار بين يديه ، وتعظيم حرماته ، وغير ذلك.!!!

وبضد أسباب زيادة الإيمان نعرف أسباب نقصانه ، أسأل الله أن يزيدنا إيماناً ويجدده في قلوبنا .

عباد الله : ومن أهم مجالات التنمية الروحية والفكرية والعقلية في الإسلام (التنمية العلمية)

فقد اهتم الإسلام بقيمة العلم أيما اهتمام، ولقد بلغت عناية الله عز وجل بنا لرفع الجهل عنا أن كان أول ما نزل من الوحي على نبينا أعظم كلمة هبط بها جبريل هي قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} (العلق: ١) ؛ ويرفع الله الذي يطلب العلم والذي يعمل به كما يشاء، قال تعالى: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} (المجادلة: ١١) أي يرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضله علمهم وسابقتهم درجات أي على من سواهم في الجنة. قال القرطبي: "أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم" وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى: أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم (درجات) أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به.

ولشرف العلم أباح الله لنا أكل الصيد الذي صاده الكلب المعلم، وإذا صاده كلب غير معلم لا يؤكل: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فُكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} [المائدة: ٤] فلولا فضل العلم لكان فضل صيد الكلب المعلم والجاهل سواء، وقد علمه كيف يصيد؟! وكيف يمسك لصاحبه؟! هذا في عالم الكلاب، رفعه الله درجة عن أقرانه بالعلم فما بالك بمن تعلم الكتاب والسنة؟!

ويبلغ من فضل العلم أنه يرفع قدر أناس ليس لهم حسب ولا نسب فوق كثير من الأكابر وكما قيل:

العلم يرفع بيتا لا عماد له.....والجهل يهدم بيت العز والشرف

أحبتني في الله: إن الله لم يقصر الأجر على العلماء في حياتهم؛ بل امتد الأجر بعد موتهم وإلى قيام الساعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ" (الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح) ، قلت: الإمام البخاري - مثلا

- مات من قرون، ومع ذلك عدادُ الحسنات يُعدُّ له إلى قيام الساعة، فمن نحن بجانب البخاري؟!!!

يحضرنى قول الإمام الشافعي رحمه الله:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم.....وعاش قوم وهم في الناس أموات

نعم يا إمامنا الشافعي، فكل من يطعن أو يشكك في هؤلاء الأعلام فهو ميت حقيقة لا حكما، بل لا يستحق الحياة. وما أجمل قول سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم *** على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه *** والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففر بعلم تعش حياً به أبدا *** الناس موتى وأهل العلم أحياء

أحبتني في الله: لم يقتصر اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالحث على تعليم اللغة العربية فحسب؛ بل أمر بتعلم اللغات الأخرى؛ وثبت أنه أمر زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية ليتولى أعمال الترجمة والرد على الرسائل، وروي أنه تعلم بأمر منه صلى الله عليه وسلم العبرية والفارسية والرومية وغيرها، فعنه رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود، قال: إني والله ما آمن يهود على كتابي، قال فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليهم قرأت له كتابهم» (رواه أحمد وأبو داود والحاكم وغيرهم وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح)، فأصبح الفقي زيدا بن ثابت تَرْجُمانَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وأصبحت اللغة سلاحاً له يدافع به عن الإسلام والمسلمين، وكما قيل: (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم) ولم تقتصر عنايته صلى الله عليه وسلم بتعليم هذه الفنون والعلوم للرجال فحسب، إنما اعتنى أيضاً بتعليم النساء العلم والكتابة، فعن الشفاء بنت عبدالله قالت: «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة، فقال لي: ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة» (أبو داود).

وجملة القول، فإن ما تقدم هو قليل من كثير ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن عنايته بالتنمية العلمية، تعلماً وتعليماً، أقوالاً وأعمالاً، مما يبرز اهتمامه الفائق بولاية العلم والتعليم.

العنصر الثاني: التنمية الاقتصادية والاجتماعية وسبل تحقيقهما.

عباد الله: لقد أولى الإسلام اهتمامه بعملية التنمية الاقتصادية اهتماماً كبيراً؛ حتى كُتِبَ في ذلك رسائل ماجستير ودكتوراه؛ لذلك حث الإسلام جميع أفرادها على العمل والإنتاج؛ ويقرر أن حياة الإنسان بدون عمل هي عقيم كحياة شجر بلا ثمر، فهي حياة تثير المقت الكبير لدي واهب الحياة الذي يريد لها خصبة منتجة كثيرة الثمرات.

فالإسلام لا يعرف سناً للتقاعد، بل يجب على المسلم أن يكون وحدة إنتاجية طاملاً هو على قيد الحياة، ما دام قادراً على العمل، بل إن قيام الساعة لا ينبغي أن يحول بينه وبين القيام بعمل منتج، وفي ذلك يدفعنا النبي صلى الله عليه وسلم دفعاً إلى حقل العمل وعدم الركود والكسل فيقول: " إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر " [السلسلة الصحيحة - الألباني]، كما حث الإسلام على اتخاذ المهنة للكسب مهما كانت دينية فهي خير من المسألة، فعن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَتَصَدَّقَ مِنْهُ تُعْنِي بِهِ عَنِ النَّاسِ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ ، فَإِنَّ يَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنْ يَدِ السُّفْلَى وَإِنْدَاءُ يَمَنْ تَعُولُ " (الترمذي وحسنه)

لذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهتم بالعمل والترغيب فيه فيقول: ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إليّ من موطن أتسوق فيه لأهلي أبيع وأشتري، وكان إذا رأى فتى أعجبه حاله سأل عنه: هل له من حرفة؟ فإن

قيل : لا . سقط من عينيه . وكان إذا مدح بحضرتة أحد سأل عنه : هل له من عمل؟ فإن قيل : نعم . قال : إنه يستحق المدح . وإن قالوا : لا . قال : ليس بذاك . وكان يوصي الفقراء والأغنياء معاً بأن يتعلموا المهنة ويقول تبريراً لذلك :- فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنة، وإن كان من الأغنياء .

وكان كلما مر برجل جالس في الشارع أمام بيته لا عمل له أخذه وضربه بالدرّة وساقه إلى العمل وهو يقول: إن الله يكره الرجل الفارغ لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة. " (إحياء علوم الدين - الإمام أبو حامد الغزالي)، وقال عمر رضي الله عنه: "مكسبُهُ في دناءة خيرٌ من سؤال الناس." ، وعنه رضي الله عنه قال: "إن الله خلق الأيدي لتعمل فإن لم تجد في الطاعة عملاً وجدت في المعصية أعمالاً". وكان سعيد بن المسيب رحمه الله يتاجر بالزيت ويقول: والله ما للرجبة في الدنيا ولكن أصون نفسي وأصل رحمتي". ، وكان إبراهيم بن أدهم إذا قيل له : كيف أنت ؟ قال : بخير ما لم يتحمل مؤنّي غيري.

فلو أن كل الطاقات المعطلة نزلت سوق العمل وأنتجت لتحققت التنمية الاقتصادية وأصبحنا في رخاءٍ ورغدٍ من العيش . أحبتي في الله: ومن أهم مجالات التنمية في مجتمعنا المعاصر (التنمية الاجتماعية)

وتتلخص في بث روح التعاون والإخاء والمحبة بين أفراد المجتمع ليصبح المجتمع كله جسداً واحداً يتألم جميع أعضائه لألمه ويسعد بسعادته؛ فعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى " (البخاري ومسلم)؛ وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " ثم شبك بين أصابعه . (متفق عليه)؛ وهنا تصوير بلاغي للمجتمع صورته لنا النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حيث شبه الأفراد باللبن في الجدار؛ وشبه المادة التي تمسك اللبن وتشد بعضه بعضاً وهي (الأسمت المخلوط بالرمل - المونة) بالعلاقات التي بين أفراد المجتمع؛ فإذا فسدت المادة التي تمسك البنيان وتشده فلا شك أن مصيره إلى زوال وانحيار وهدم ؛ وكذلك العلاقات الإنسانية والأخلاقية بين أفراد المجتمع إذا فسدت فإن المجتمع مصيره كذلك إلى زوال وانحيار وهدم!!!

إن التنمية الاجتماعية لن تتحقق إلى بنشر المحبة الصافية الخالية من الشوائب النائية عن كل مصلحة أو حاجة!! فعن أبي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-، عَنِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- : «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرَادَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيَنْ تُرِيدُ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُدُّهَا؟ قَالَ : لَا، غَيْرَ أَبِي أَحَبَّنِي فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّنِي فِيهِ» (مسلم)

قال الإمام النووي: " في هذا الحديث فضل المحبة في الله تعالى ، وأنها سبب لحب الله تعالى العبد ، وفيه فضيلة زيارة الصالحين والأصحاب. " فأين نحن من هذه المعاني!!

العصر الثالث: التنمية الشاملة في حياتنا المعصرة بين الواقع والمأمول.

عباد الله: إذا أردنا أن نحقق التنمية لوطننا وبلادنا ومجتمعنا فعلياً أن نغير ما نحن فيه من واقعنا الذي نعيش فيه؛ فكيف نحقق التنمية الاقتصادية وشبابنا في ضياع؟!!! والله إن القلب ليحزن حينما يري الشباب وهم في أعز قواهم العقلية والجسدية ومع ذلك يفني الشباب قوته وشبابه في الفراغ؛ وفي كل ما حرم الله تبارك وتعالى من ملاحه ومشارب وخمور ومجون وغير ذلك؛ ولو لم يكن الإنسان في حاجة إلى العمل، لا هو ولا أسرته، لكان عليه أن يعمل للمجتمع الذي يعيش فيه فإن المجتمع يعطيه، فلا بد أن يأخذ منه، على قدر ما عنده. يُروى أن رجلاً مر على أبي الدرداء الصحابي الزاهد - رضي الله عنه - فوجده يغرس جوزة، وهو في شيخوخته وهرمه، فقال له: أتغرس هذه الجوزة وأنت شيخ كبير، وهي لا تثمر إلا بعد كذا وكذا عاماً؟! فقال أبو الدرداء: وما عليّ أن يكون لي أجرها ويأكل منها غيري!! وأكثر من ذلك أن المسلم لا يعمل لنفع المجتمع الإنساني فحسب، بل يعمل لنفع الأحياء، حتى الحيوان والطير، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَيْمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ " [البخاري]، وبذلك يعم الرخاء ليشمل البلاد والعباد والطيور والدواب.

كيف نحقق التنمية الاقتصادية وقد منع الغني حق الفقير وضمن وبخل به؟!!!! فلو منع الغني حق الفقير - المقرر شرعاً ليس منحة ولا تفضلاً - لازداد الغني غنيً والفقير فقراً، واختل التوازن في المجتمع. فعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يضيع أغنيائهم، ألا وإن الله عز وجل يحاسبهم يوم القيامة حساباً شديداً ، ثم يعذبهم عذاباً أليماً » (الطبراني)، وقال علي رضي الله عنه - أيضاً: " ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع "، وكما قال الشيخ الشعراوي رحمه الله: " إذا رأيت فقيراً في بلاد المسلمين .. فاعلم أن هناك غنياً سرق ماله "، وقال عمر: " ما تمتع غنيٌ إلا من جوع فقير "، والله لو أن كل غنيٍ اتقى الله وأخرج زكاته ما وجدت فقيراً في بلاد المسلمين!!!

كيف نحقق التنمية الاقتصادية وهناك خلل في توزيع الثروات والدخول؟!!!! كيف نحقق التنمية الاقتصادية وقد رُفِعَ الجاهل وأُعدمت الكفاءات؟!!!! كيف نحقق التنمية الاقتصادية وانتشر بيننا التعامل بالرشوة والربا والغش والوساطات والمحسوبيات؟!!!! كيف نحقق التنمية الاقتصادية.....؟!!!!

إننا بحاجة إلى نعيد حساباتنا ونقف مع أنفسنا وقفة من جديد؛ أين نحن من العمرين؟! عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز؟!!

فهذا عمر بن الخطاب وقف ذات يوم يخطب في الناس فما كاد يقول: أيها الناس اسمعوا وأطيعوا. حتى قاطعه أحدهم قائلاً: لا سمع ولا طاعة يا عمر، فقال عمر بهدوء: لم يا عبد الله؟ قال: لأن كلاً منا أصابه قميص واحد من القماش لستر عورته وعليك حلة. فقال له عمر: مكانك، ثم نادى ولده عبد الله بن عمر، فشرح عبد الله أنه قد أعطى أباه نصيبه من القماش ليكمل به ثوبه، لأن عمر طويل ولم يكفه نصيبه، فاقتنع الصحابة وقال الرجل في احترام وخشوع: الآن السمع والطاعة يا أمير المؤمنين!!! أي عدالة ومساواة هذه؟!!

وهذا عمر بن عبدالعزيز الذي امتلأ بيت المال في عهده؛ وفوجئ بشكاوى من كل الأمصار المفتوحة (مصر والشام وأفريقيا...)، وكانت الشكاوى من عدم وجود مكان لتخزين الخير والزكاة، ويسألون: ماذا نفعل؟ فيقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أرسلوا منادياً ينادي في ديار الإسلام: أيها الناس: من كان عاملاً للدولة وليس له بيت يسكنه فليُبْنَ له بيتٌ على حساب بيت مال المسلمين. أيها الناس: من كان عاملاً للدولة وليس له مركبٌ يركبه، فليُشْتَرَ له مركب على حساب بيت مال المسلمين. أيها الناس: من كان عليه دينٌ لا يستطيع قضاءه، فقضاؤه على حساب بيت مال المسلمين. أيها الناس: من كان في سن الزواج ولم يتزوج، فزواجه على حساب بيت مال المسلمين. فتزوج الشباب الأعراب وانقضى الدين عن المدينين وبنى بيت لمن لا بيت له وصرف مركب لمن لا مركب له. ولكن الشكاوى مازالت مستمرة بعدم وجود أماكن لتخزين الأموال والخيرات!، فيرسل عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إلى ولاته: "عودوا ببعض خيرنا على فقراء اليهود والنصارى حتى يستكفوا"، فأعطوا. والشكاوى مازالت قائمه!! فقال: وماذا أفعل! ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، خذوا بعض الحبوب وانثروها على رؤوس الجبال فتأكل منه الطير وتشبع. حتى لا يقول قائل: جاعت الطيور في بلاد المسلمين!!!!

رضي الله عنك يا أمير المؤمنين!!!! حكم بضعة وثلاثين شهراً كانت أفضل من ثلاثين دهرًا، نشر فيهم العدل والإيمان والتقوى والطمأنينة، وعاش الناس في عز لم يروه من قبل!!!!

أحبتني في الله: والله الذي لا إله غيره، لو أدى كل إنسان زكاة ماله وواجهه على أكمل وجه دون نقصان، وأخذ كل واحد حقه دون زيادة؛ لصلح حال البلاد والعباد، والراعي والرعية، وما صرنا إلى ما نحن فيه!!!

أختم حديثي معكم بهذه القصة التي بينت صفات المجتمع المسلم في عصر الخلافة الراشدة؛ وما هم من حقوق وما عليهم من واجبات؛ وكيف تحققت التنمية عندهم؟! روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه عين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً على المدينة، فمكث عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة كاملة لم يختصم إليه اثنان، لم يعقد جلسة قضاء واحدة، وعندها طلب من أبي بكر إعفائه من القضاء، فقال أبو بكر لعمر: أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟ قال عمر: لا يا خليفة رسول الله، ولكن لا حاجة لي عند قوم مؤمنين عرف كل منهم ما له من حق فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب فلم يقصر في أدائه، أحب كل منهم لأخيه ما يجب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفقدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج ساعدوه، وإذا أصيب عزوه وواسوه، دينهم النصيحة، وخلتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيم يختصمون!!!

إننا بحاجة إلى أن نغير ما بأنفسنا تغييراً شاملاً لكل جوانب الحياة حتى نحقق التنمية بجميع جوانبها؛ مصداقاً لقوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " (الرعد: ١١).

عباد الله: ولو ذهبنا إلى واقعنا في التنمية الاجتماعية فحدث ولا حرج؛ يحزنني كثيراً ما نحن فيه من اختلاف وتفرق؛ وما يحدث في واقعنا من جرائم؛ وما يرتكب فيه من إراقة الدماء وقتل للأبرياء.

إنني أدعو جميع أطراف المجتمع إلى الاجتماع والاعتصام والوحدة، فالاجتماع والاتفاق سبيل إلى القوة والنصر، والتفرق والاختلاف طريق إلى الضعف والهزيمة ، وما ارتفعت أمة من الأمم وعلت رايثها إلا بالوحدة والتلاحم بين أفرادها، وتوحيد جهودها، والتاريخ أعظم شاهد على ذلك، ولذا جاءت النصوص الكثيرة في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - تدعو إلى هذا المبدأ العظيم، وتحذر من الاختلاف والتنازع ومنها قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (الأنفال: ٤٦)، وفي حديث أبي مسعود: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمسح مناكبنا في الصلاة ، ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم" (رواه مسلم) إنني أدعو جميع أفراد المجتمع إلى الوحدة والترابط؛ وأن يحل الاتفاق مكان الاختلاف؛ والاجتماع والاعتصام بدلا من التفرق والتشردم، والحب بدلا من الكره، والإيثار بدلا من الأثرة، والإحياء بدلا من العداوة؛ وبالجملة محاسن الأخلاق بدلا من مساوئها؛ ولنرجع إلى القيم الخلقية التي تحلى بها الرعيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ألا فلنحتد جميعاً من أجل بناء مجتمعنا، من أجل بناء وطننا، من أجل بناء مصرنا، من أجل بناء حضارتنا، بعيدين عن التفرقة، عن التشردم ، عن التحزب، عن التشتت، حتى نحقق آمالنا، ويعلو بنياننا ، ونبلغ منانا، فنكون جميعاً أدوات بناء لا أدوات هدم!!

ومتى يبلغ البنيان يوماً تماماً.....إذا كنت تبني وغيرك يهدم؟!!!

نسأل الله أن يجمع شملنا وقلوبنا على طاعته، وألا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا.

كتبه : خادم الدعوة الإسلامية

د / خالد بدير بدوي